في لبنان كذلك تُعين عليه احوال المصطافين

ليس كلّ المصطافين من اهل الصلاح والآداب الراقية. فانّ بينهم اصحاب البطالة والطالبين للملاهي ومنهم الغُلاة في المبادي السياسيّة والمنهمكون في الشهوات الباطلة. تراهم يقضون ايامهم ولياليهم في المقامرات والسكر والملاهي الخسيسة يطلقون العنان لنسانهم في بثّ روح الخلاعة والكفر بين اهل لبنان. وينشرون الجرائد والمجلّات والكتب الفاسدة. وتكتسي نساؤهم بالملابس المتهتكة

فمجيء مثل هؤلاء الى لبنان آفة على الاصطياف المادي المُريح وان نما عددهم أتف رجال الفضل والأُسر الكريمة من قضاء فصل الصيف في لبنان فيفقد الجبل سمعتهُ الطيّبة ويحيد كثيرون عن قصده فانّ مثل هذا التعميم الفاسد ضررٌ يؤدي اخيرًا الى الاستنكاف والأنفة ثم العدول عن لبنان

ومن ثمّ يلزم شركة الاصطياف ان تمنع مثل هؤلاء عن دخول لبنان طاقة جهدها لئلّا يتدنّس الجبل بمفاسدهم وتهتكهم

وكذلك الاهلون يجب عليهم ان يتحرّزوا من الذين يرونهم قليلي الآداب مغرَمين بالقصف واللهو متشاغلين بالمقامرات. ويا ليت الحكومة اللبنانيّة تضرب على ايدي المقامرين وتصون لبنان من هذا الوباء الفتّال

هذا بعض ما خطر على بالنا تلبيةً الى دعوة جناب المقترح مع الدعاء الى الله ان يزيد لبنان حسناً وبهاء ويجعلهُ مأوى صالحًا لكل طالبي صحّة الجسم وهناء النفس

الاحوال الاقتصادية في سورية الرومانية

لحضرة الاب ربّه موترد اليسوعي كنشلير بكتب الحقوق الفرنسوي

قد ظهر مؤخرًا تأليفان في التجارة واحوال سوريّة الاجتماعيّة في القرون الاولى من التاريخ المسيحي(١ فرأينا ان نستخلص منهما بعض فوائدهما لينتفع بها اهل سوريّة

١) دونك عنوانها M. Rostovtzeff: The social a economic History of the Roman Empire. *In-8°, XXV-695 pp., Oxford, Clarendon Press, 1926* =

المحدثون . والتأليف الاول الذي عنوانهُ تاريخ المملكة الرومانيَّة الاجتماعي والاقتصادي مؤلفهُ احد الكتبة الروسيين الذي بعد هجرهِ لوطنهِ فراراً من البولشفيَّة امكنهُ ان يحصل في جامعات الولايات المتحدة على مركز حسن . امَّا التأليف الثاني فمؤلفهُ المستر لويس ڤست فانهُ قصرَ شغلهُ على تجارة سوريَّة الشماليَّة في ذلك العهد عينهِ والكاتب اميركي الوطن متضلع من المباحث التجاريَّة ومن التاريخ القديم معاً . فمن مراجعة هذين الكتابين يمكننا انْ نبيّن حالة سوريَّة في قرون النصرانيَّة الاولى فنذكر : ١ً ترقي البلاد واحوالها الاجتماعيَّة . ثم ٢ً زراعتها . ثم ٣ً صناعتها . ثم ٤ً تجارتها . وهـا نحن نستقري هذه الامور الاربعة بدلالة الكاتبين مع زيادة ايضاحات على ما لم يستوفيا بيانهُ

١ ثروة سوريَّة واحوالها الاجتماعيَّة

ان استثنينا الاحراج التي كانت تزين لبنان لم يختلف قديماً نظر سوريَّة كثيراً عن حالتها الحاضرة . وكان الرومان يُعنون بسوريَّة كلّ البلاد الواقعة بين جبـل طورس وجنوبيّ فلسطين وهم يعتبرونها قبل كلّ كأرض زراعيَّة . وما كانوا يستثمرون منها المعادن اللهمَّ إلَّا حُمر الاردنّ والجصّ . وكانت المدن وقتئذٍ اوفر عـدداً منها في عهدنا لاسيما في الداخليَّة لكنَّها لم تكن حافلةً بالسكَّان ما خلا انطاكية

وكانت الاملاك مقتسمةً بين كبار الملَّاكين ساكني المدن وبين المراكز الدينيَّة التي كانت تملك على ارزاق واسعة . وكان للامراء من سلالة الهيرودسيين ولقياصرة رومية ايضاً املاك وافرة في بلاد الجليل . امَّا العملة لفلاحة هذه الاملاك فلم يكونوا من العبيد كما في صقلية ولا من المستعمرين الملازمين للتربة كما في آسية الصغرى . وانَّما كانوا أُجراء احراراً يرتزقون بخدمة الملَّاكين وكان للملَّاك قرى او مزارع يُعنى بزراعتها . فنرى مثلاً في الكتابات القديمة اسماء كهذه «هذا ملك كزميانوس . . . هذه ارض حبيب» وكان الملَّاك الغنيّ يستأجر عملةً لفلاحة ارضهِ كما نصّ على ذلك السيّد المسيح في الانجيل في مثل عَمَلة الكرم الذين كانوا يجتمعون صباحاً في احدى ساحات

L. G. West : Commercial Syria under the Roman Empire (*Trans. American Philolog. Associat., LV, 1914, pp. 160-189*

البلدة ايستأجرهم ارباب الملك

وكان اصحاب الاملاك بالغي المطامع . فقد افادنا القديس يوحنّا الفم الذهب انهم ما كانوا يرضون من شركائهم الفلّاحين بالربح الكافي مثلاً ١٢ ٪ بل كانوا يطالبونهم بالخمسين في المئة . ومن ثمَّ كان العَمَلة في القرى يكرهون سكّان المدن حتى انَّ التروبين في القرن السادس لمّا هرب اهل انطاكية من حاضرتهم خوفاً من الزلازل جعلوا يفتكون بهم ويقتلونهم

وكذلك الفلّاح في ذاك العهد كان حريصاً على المال كثير الحيلة في جمعه . ومما اخبره الخطيب ليبانيوس الشهير والمتملك الكبير في جهات فلسطين انَّ الشركاء كانوا يتّفقون مع الجنود ليتملّصوا من أداء المال الذي في ذمّتهم لارباب الاملاك . امّا شركاء المراكز الدينيَّة فكان نصيبهم أصلح وأرضى . فكانوا يقيمون اسواقاً دينيَّة (panégyries) يتقاطر اليها السكان لممارسة فرائض الدين وللمتاجرة وكثيراً ما كانت هذه الاسواق معافاةً من الضرائب الديوانيَّة . من ذلك السوقُ المقامة بقرب هيكل حصن سليمان في بلاد عكار . واهلّ السوق التي تُقام حاضراً في دير القديس جاورجيوس عند قلعة الحصن هي بقيَّة من تلك السوق القديمة

٢ الزراعة السورية ومحصولاتها

بديهيٌّ انَّ الاراضي السوريَّة كانت في عهد الرومان معتبرَة كأغنى بلادهم بوفرة الغلّات لاسيما القمح والشعير . فانَّ القطر السوري كان يستغني لإعاشة سكانه عن البلاد المجاورة ما لم يحصل قحطٌ يلجئهُ الى استجلاب الغلال من مصر . وكذلك كانت سورية تقوم بغذاء جيش الاحتلال الروماني . لكنَّها ما كانت تصدّر الى الخارج شيئاً من غلّاتها ومن ثمَّ لا صحَّة لِما اشاعهُ بعض النُّقاد بقولهم انَّ سوريَّة وخصوصاً البقاع كانت اهراء المملكة الرومانيَّة

ومن محصولات سوريَّة الوافرة زيتُ زيتونها وخمرُها الفاخرة . فانَّ ايطالية كانت تبتاع الخمور من بيروت وطرابلس وجبيل وافامية (قلعة المضيق) وصور اعني من سائر بلاد العلويين ولبنان الحالي . وكانت خمرُ اللاذقيَّة تُرسل الى سواحل البحر الاحمر فيبدلونها بالعاج واللبان والاصباغ والدهون . ولا شكَّ انَّ خمرًا كهذه لئلّا

تفسد مع طول طريقها كانت كثيرة الكحول كالخمر اللبنانية الحاضرة المعروفة بالخمر الذهبية او كخمور بلاد الجزائر الحمراء

وكذلك ثمار سورية كانت غزيرة جداً كالاجاص والخوخ والتين يُرسل منها كميات وافرة الى ايطالية . وكان الاجاص الدمشقي يوصف كمثلين . وكان الايطاليون زرعوا في بلادهم ثلثة من اجناس التين السوري كان اصل الواحد من سورية يدعونهُ كوتانا (Cottana) والاثنين الآخرين من آسية الصغرى . ومن محصولات سورية الصادرة الى اوربة الكمثرى والحمص والفجل والبصل والفستق . وكانوا يدعون بالعسل الفينيقي نوعاً من دبس التمر او الخرُّوب

ومما راجت سوقهُ في الخارج عدَّة نباتات سورية منها عطور ومنها ادوية كالمصطكى والاخشاب العطرة وزيت الارز وجوز العفص والناردين والزفوت والواتينج وزهرة الكرم (œnanthe) التي كانوا يمزجونها بواحد وعشرين صنفاً من العقاقير

ويجب ان نُلحق بمحصولات سورية خيلها الشهيرة كانت رائجة السوق في مصر . وكذلك الوحوش الضارية التي كانت تتَّخذها رومية لألعابها العمومية . يُخبر عن الامبراطور كلوديوس انهُ كان كل سنة يستجلب من سورية عشراً من النياق تُعرض على الشعب تفكهةً . وقيل انَّ الامبراطور بروبس عرض في حلبة رومية مئة من الفهود السورية

وكان الرومان يستحبُّون ايضاً اخشاب سورية الفاخرة كالارز والبطم والعرعر وذلك قبل ان يجرَّد لبنان عن غاباته الكثيفة . وكان الامبراطور ادريان قد احتكر للدولة اربعة اجناس منها كانوا يعتمرون بها سفنهم . وكان السوريون يتعاطون ايضاً التجارة لخدمة الرومان في قرون رومية المتأخرة وانما كانوا يربُّون العبيد ويثقفونهم ليخدموا اما كصارعين واما كممثلين في المسارح . وكانت مدن سورية تقتسم هذه التجارة الدنيئة . فكانت اللاذقية تُعنى بتعليم العبد الفروسية . وصور وبيروت بفنّ التمثيل . وغزَّة بالموسيقيين . وبعلبك بنفخ الشبابات . والقيصرية بفنّ الرقص . وعسقلان بالصراعة

وكانت كل هذه السلع تصدر من القطر السوري . وكانت المرافئ السورية ما

خلا ذلك توسق بضائع اخرى تأتيها من البلاد الاجنبية تنقلها القوافل من البحر الاحمر وجزيرة العرب على طريق بترا وحوران الى صيداء وبيروت. وكذلك محصولات العجم والعراق والهند حتى الصين كانت تأتيها على طريق تدمر الى انطاكية واللاذقية. فمن هذه السلع ما كان يجتاز في سورية ممرًا اخصُّها الاقاويه والعقاقير واللبان والمصنوعات الصبغية والدهونات والعطور. وكان اكثرها رواجاً عطرٌ هندي كان يرسل على طريق البحر الاحمر وجزيرة العرب يدعونهُ «مالوباثروم» كانوا يشمّون رائحتهُ وقد زعم احد علماء الالمان انَّ هذا المشموم هو الذي شاع استعمالهُ قبل ثلثين سنة ويدعى بتشولي (patchouli) وفي تجديد شيوعهِ ما يثبت قول سليمان النبيّ ان ليس جديدٌ تحت الشمس

وكان بين السلع المذكورة قسمٌ آخر يستفيد منهُ السوريون في صناعتهم كما سترى

٣ الصناعة السورية في عهد الرومان

﴿ الحرير والقطن ﴾ كان الحرير يُنقل الى سورية من الصين والقطن من الهند وكان نزل دخول بزر القزّ الى سورية في القرن السادس بواسطة بعض الرهبان المرسلين ولعلّ القطن احدث عهداً في الشام. وكان صَنَعة صور وصيداء وبيروت يعمدون الى الحرير الخام فينقّعونهُ ويصبغونهُ. اخبر لوسيانوس الفيلسوف انَّهُ كانت تُباع في رومية حرائر منسوجة في الصين كان عَمَلة مصر نقّموها حتى اصبحت شفّافة. وكانت هذه الحرائر تُزركش بالذهب فتباع بأثمان غالية الى ان صدر امر القياصرة باستحضار هذه المنسوجات في المعامل الامبراطورية. فاصاب السوريين بهذا الاحتكار ضررٌ عظيم بعد رواج مصنوعاتهم في كلّ انحاء المعمور

﴿ الاصواف السورية ﴾ ما كانت سورية تحتاج الى موادّ صناعتها خارجاً عنها فكان الصوف لديها متوفراً في غاية الجودة وتنبت تربتها نبات الصابونية لتبييض جزّته. وكانت صناعة الغزل شائعة في انحاء البلاد حتى انَّ سيدات تدمر كنَّ احياناً يتصوَّرن وفي ايديهنَّ مكبّ الغزل ولعلَّهنَّ فعلنَ ذلك تشبُّهاً بتمثال الإلهة السورية المنصوب في منبج. ويُروى عن الغوازل السوريات انهنَّ اخترعن بعض التحسينات في اصطناع المِبرَم

﴿ الارجوان ﴾ وكان السوريون يستنبتون الكتّان ايضاً ثمّ تخصّصوا بعد قليل باستحضار الصوف والكتّان مصبوغَين بالارجوان . وقد استخرجوا صبغ الارجوان من دودة اصداف كان اهل صور يصطادونها على سواحل الشام والبحر المتوسط تدعى مور كس (murex) فكانوا ينقعون تلك الاصداف ثم يغلونها فتنبعث منها روائح كريهة لا يكترثون لها بما يحصلون عليهِ من الارباح الطائلة . فان ليبرةً (نصف كيلو) من المنسوجات الارجوانيَّة البنفسجيَّة اللون كانت تساوي في عهد اوغسطس قيصر مئة دينار اي نحو ١٨٠ فرنكاً ذهباً من نقودنا الحاليَّة . ثمّ غلبها الارجوان الاحمر المصنوع في تارنتي (ايطالية) ثمّ شاع بعدهما الارجوان المضاعف الصبغ (dibapha) الشبيه بلون عبيط الدم الاحمر المتلمع بسواد الذي بلغ ثمن ليبرته الف دينار (١٨٠٠ فرنك ذهباً) . وقد فاق صبّاغو صور بحذقهم على سواهم في صيداء وصرفد ودورا وقيصريَّة

﴿ الزجاج ﴾ ومن الصنائع التي اصاب فيها السوريون قصبة السباق الزجاج . ولم يتّفق العلماء حتى يومنا عن مخترعي الزجاج ونفخهِ . والمرجّح انّ الفضل في ذلك للمصريين الّا انّ الفينيقيين تعاطوهُ بعد اختراعهِ بزمن قليل وزادوا في تحسينهِ . وكانت صيداء في العهد الروماني مركز صناعة الزجاج . ومن آثارها اقداحٌ زجاجيَّة صغيرة شفّافة كتب عليها صنّعتها اسماءهم باليونانيَّة وأضافوا اليها هذه الوصاة «تذكر ايها المشتري هذا الاسم» . وكان يصطنع الزجاج عددٌ عديد من العملة فتوفّرت الآنية الزجاجيَّة حتى انّ قدحاً للشرب كان يباع بنقود نحاسيَّة . وكان الصنّعة يتفنّنون في استحضار الزجاج وطرائق نفخه عند اتقادهِ على قوالب شتى ليرغبوا باشكالها الزبائن

وقد وجدوا عدداً وافراً من زجاج صيداء في عدّة بلاد حتى شواطئ نهر الرين والبحر الاسود . ومن خواص هذا الزجاج انهُ كان اذا بقي مطموراً مدّة في الارض تلوّن بألوان زاهية ذهبيَّة وفضيَّة يتزاحم اليوم في اشتراء قطعهِ الاثريون في اوربَّة واميركة

﴿ المعادن ﴾ ولم تحرم سورية من الصناعة المعدنيَّة . نعم ان هذه الصناعة لم تبلغ ما بلغتهُ في عهدنا للاشغال العموميَّة والابنية وسكك الحديد ولكن كانت كافية لحاجات الاقدمين فيصطنعون ضروب الادوات والاسلحة التي كانوا يبيعونها في مخازنهم البعيدة وفي المدن الداخليَّة على حدود البادية لمنفعة الاعراب وكان لصيداء نقابة لصنعة الاسلحة والسكاكين . وكانت رومية اتّخذت لها في انطاكية معملاً كبيراً

لاسلحتها. وكان فيها ايضاً وفي تدمر معمل لاصطناع المصوغات الجوهريَّة . وكانت تدمر تتاجر بالمصوغـات وتنقل جواهر العجم الى اليونان والى البحر الاحمر . وكان لانطاكية شهرة بعيدة بما تصطنعهُ من الاقداح والآنية الفاخرة بنقوش مختلفة منقورة او نائتة او مقعَّرة . ولمَّا انتصرت النصرانيَّة على الوثنيَّة كان المرجـع الى انطـاكية لاصطناع آنية الكنائس من كؤوس وصواني وصحون وقناني للزيوت المكرَّسة والميرون . وقد انتشرت هذه الاوعية في سائر الكنائس حتى في قبرس وثراقية وكان لحوران صاغة وجوهريون خصوصيون . وهاجر كثيرون من السوريين الى البلاد الاجنبيَّة وتعاطوا فيها اشغالهم وصاغوا الذهب والفضَّة وكان في مدينة ليون رَقَّام من مرعش (barbaricarius) يرقم الانسجة ويرشيها بالمعادن الثمينة . وكذلك كان في رومية صانع يستحضر الجواهر الثمينة (gemmarius) اسمهُ البيوس تيم الله (L. Albius, h. l. Thaemalla) ما يدلّ على اصلهِ العربي

٤ التجارة

فترى انَّ السوريين كانوا يهاجرون ايضاً في تلك الازمنة البعيدة إلَّا انَّ المهاجرة كانت محصورةً ويعمد اليها التجارُ الاغنياء الاحرار وبهاتين الصفتين كانت تختلف عن المهاجرة الشائعة في عهدنا . فكان تجار كبار من السوريين يقطعون البوادي ويسيحون في انحاء الممالك الرومانيَّة فتراهم في مراكش والنكلترَّة والقفقاز وفي مدينة قبطس على طريق الهند من جهة البحر الاحمر . ويلوح من احتـلالهم في هذه المراكز انهم يُحسنون انتخاب البلاد الرائجة الاسواق الكثيرة الاعمال فتارة يحلُّون في المرافئ الحافلة بالسكَّان ويتَّخذون المخازن الكبيرة . واذا اخـذَتْ سوقٌ في الكساد انتقلوا الى غيرها اوفر منها ربحاً . فانَّ الآثار تشهد على وجود اهل بيروت وصيداء وغيرهم في القرن الاوَّل والثاني للمسيح في ديلوس (اليونان) وفي مالقة (اسبانية) ولعلَّهم هنـاك اشتركوا مع المعدنين في المتاجم الفضيَّة وكذلك نجد اهل صور وبيروت في اوَّل عهد الامبراطرة في مدينة پوزُولـة مرفإ رومية ثمَّ انتقلوا الى مرفإ اوستية لمَّا غلب على مرفإ پوزولة . وكان لهم في عاصمة الرومان حيٌّ خصوصي ومستعمرات في مدينتي آكريلا وراڤنة في اقصى شواطئ البحر الادرياتيك حيث كانوا يتاجرون مع اهـل

جرمانية واعالي نهر الدانوب. واستوطنوا مدينة ليون عاصمة غالية التجارية واقترنوا بالزواج مع اهلها. ومنهم من سار الى مدينة تريف على شواطئ الرين بل بلغوا الى قارنة عند رأس الدانوب. ولما اصبحت القسطنطينية حاضرة المملكة اسرع نشطاء السوريين فاحتلوها وكان لاحدهم بطرس برسيا مصرف بقرب البلاط الملوكي ثم دخل بين حرسه حتى نال الحظوة عند الامبراطورة ثاودورا زوجة يوستنيان الملك

وكان السوريون اذا استوطنوا مدينة اقاموا لهم محلًا او خاناً كانوا يجعلونه مستودعاً لبضائعهم فيه منازلهم مع معبد يعبدون فيه آلهتهم الوطنية. ففي خان مدينة يوزولة نذر تاجران سوريان بعيرين صغيرين من الشبه للاله دوساري (ذي شرى)

فما سبق يتحصل انَّ السوريين كانوا أحسنوا تنظيم تجارتهم. ولكن الى أي درجة بلغ ذاك التنظيم؟ أيا ترى عرفوا شيئاً من التسهيلات الجارية في عهدنا لرواج تجارتهم مثلاً النشأة التجارية (crédit bancaire) او شركة المشروعات؟ فالجواب على ذلك بالايجاب فاننا نشرنا في المشرق (٢٤[١٩٢٢]: ١٩٠ــ٢٠٠) كتابة لصراف بيروتي كان مقيماً بقرب هيكل عشترت معبودة المدينة. وكذلك اثبتت الآثار الكتابية وجود صرافين سوريين في جبيل وراشة وفي القسطنطينية وانطاكية. لكننا لم نجد اثراً للشركات التجارية تعقد لمباشرة اعمال ما تكون ارباحها وخساراتها مقتسمة بين المشتركين أللهم الّا في مدينة تدمر

وما لا شكَّ فيه ان ثروة سورية وخصبها كانا اعظم في ذلك العهد منها في عهدنا. وكفى بذلك عبرة للمعتبرين. فان اراد السوريون ان يحسنوا امورهم فعليهم قبل كلّ ان يهتموا بالزراعة ويستفيدوا من الاختراعات الحديثة لذلك. فمن الواجب اذا ارادوا زرع الحبوب ان يبالغوا في الفلاحة وتجديد التربة ثمَّ ينتخبوا اجود الحبوب ويُعنوا العناية الواجبة في تسميد التربة بالسمادات الكيماوية فيمدُّوها في السهول الداخلية. ويجب على اهل لبنان وسكّان الجبال ان يستحضروا الثمار اليابسة والنباتات الطبيعية بقرب اشجار التوت. أفلا يستطيع اللبنانيون ان يُجاروا سكّان آسية الصغرى بتجارة الاثمار اليابسة وعطر الورد؟ ما لهم لا يصطنعون باثمارهم المربيات مع ما يرد سورية من كميات السكّر فيستغنون بذلك عن المربّيات الاجنبية الغالية

الثمن . وكذلك الخمر اللبنانيَّة فلو استحضروها كأجدادهم امكنهم تصديرها الى الخارج دون فسادها

وعلى هذا المثال عدَّة صنائع قديمة اصابها الخمول لعدم اتقانها كما في العهد السابق كحياكة الحرير والطنافس وتطعيم الآبنوس ونقش الزجاج الذي يهتمّ في تجديده حاضرًا المعهد الفرنساوي في دمشق . فعلى افراد التجار والشركات الوطنيَّة ان يسعوا باعمال رابحة يروّس مالهم فيخفّفون هكذا عن عاتق الحكومة التي تعجز وحدها عن القيام بعدَّة مساعي فيخدمون وطنهم ويحرزون لهم ثروةً طيِّبة

الآداب العربيَّة

في الربع الاول من القرن العشرين

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

البحث الثاني

نظر عامّ في الآداب العربية حاضرًا

تتبَّعنا في دروس سابقة ثلاث حقب الربع الاوَّل من القرن العشرين ورأينا ما طرأ على الآداب العربية من التأثير والتقلُّب بدواعي احوال العصر من حريَّة مقيَّدة وحريَّة دستوريَّة وانضغاط لسبب الحرب الكونيَّة والتحرُّر التام بعدها

فما بقي علينا إلَّا أن نلقي رائد البصر الى العالم العربي الحاضر لنرى اجمالًا حالة آدابه الحاضرة وما يُرجى منهُ لمستقبل هذه الآداب

كان حقًّا ان نباشر بحثنا هذا بهد اللغة العربيَّة اي جزيرة العرب . أيستفاد من نجدها ومجازها ويمنها شيء لنهضة الآداب العربيَّة ؟ فنجيب بكل أسف إنَّ مقامها في عالم الادب غاية في الخمول . فانَّ مدارسها وصحافتها ومنشوراتها لا يُعبأ بها . ولا